آباء في خلقه

الرَّبابيح [1]

الرُّبابيح واحدها في العربية «رُبّاح» ، وهو القرد الكبير . ولقد استعملت هذا اللفظ للدلالة على جنس عظيم من أجناس الرئيسات (Primates) متابعاً في ذلك الاستاذ الكبير السيد أمين المعلوف عافاه الله . وقبل أن أمضي في الكلام على هذا الجنس ، ينبغي لي أن أشير الى أن المواليديين (علماء التاريخ الطبيعي) يقسمون الرئيسات قبيلتين : الأولى البشريات (anthropoidea) ، والثانية الصَّغبوريات (lemuroidea) ، ثم يقسمون البشريات خمس فصائل : الأولى الآدميات (hominidae) والثانية الشبهيات (simiidae) ويقصدون بها القردة العليا ، والثالثة القُرْدُوحيات (cercopithecidae) والرابعة العَوْدَليات (cebidae) وتدل عندهم على سعادين الدنيا الجديدة ، كما تدل القردوحيات على سعادين الدنيا القديمة . والخامسة القبيات (hapalidae) وهي صغيرة الجسم وتكون في الدنيا الجديدة

أما الشبهيات فيقصد بها القردة الشبيهة بالانسان (man-like apes) . غير ان الناظر في هذا التصنيف يستشعر فيه نقصاً بيّناً . ذلك بأن وضع السعادين (monkeys) وهي طبقة أدنا من القردة (apes) في صف مع البشريات ، أمر يجعل هذا التصنيف محتاجاً إلى إضافة فيئة جديدة نقترح ان نسمي السعدانيات ، وان يقابلها في التسمية الأعجمية (pithecoidea)، وبهذا يستقيم تصنيف الرئيسات إذ يكون لها ثلاث قُبيّلات (suborders) هي : البشريات وتشمل الانسان والقردة العليا ويقصد بها اجناس الشمْزَى والغيرلّى والأرطان والشوْجر (gibbons) ، والسعدانيات ، وتشمل سعادين الدنيا القديمة والدنيا الجديدة معاً ، وتشمل فيها تشمل أجناس الرُّبابيح واليعاسيب والكهول والملاّق والسّكيت وغيرها ، ثم الصعبوريات وتشمل فيما تشمل الفاجيز واللواريس والبوابيس والسناك الى آخر ما هنالك

هذا الكلام العلمي يحمل المترجم في العلوم على أن يلزم ترجمة خاصة اذا ما صادفه فيما يترجم من مسائل العلم لفظتا (ape و monkey) فان الأولى ينبغي أن تترجم «قرد» والثانية ينبغي أن تترجم «سَعْدان» . ذلك بان الفارق بين القرد والسعدان كبير في الاعتبار العلمي وكم كنت أود أن أقف القارىء على شيء من أصول هذه الأسماء التي أستعملها في العربية

---

[1] Genus : Papio, or the True Baboons

لأول مرة ، وأكثرها رغم غرابتها على المطلع ، عربي أصيل . فلولا أني أخشى تلك النظرات الشزر التي يرسلها صديقي محرر المقتطف على الأصول اليونانية واللاطينية ، وتمايلات البحث والاقتباس ، وذكر المصادر والمظان فلأترك إذن جميع ذلك الى فرصة أخرى . فنعود الى الرَّبابيح وما لها من حديث ، يذكرنا بآيات الخالق البيّنات

ان الربابيح جنس افريقي وتقطن بالاخص البلاد الواقعة في الشمال الشرقي من قارتنا على شواطىء البحر الأحمر، وهي فضلاً عن اختصاصها في الغالب بشرقي إفريقيا وما كان منها على البحر الاحمر ، فإنها تغشى جميع افريقية ، ويقطن منها غرب أفريقية جنس الفيمين macaques وهو جنس أبتر (قصير الذنب) منهُ نماذج فذّة في حديقة الحيوان بالجيزة . واذا أخرجنا الانسان من حسابنا ، كانت الربابيح أكبر الرئيسات حجماً وأثقلها بدناً بعد القردة العليا . وقد عرف اليونان والرومان هذا الجنس من القردة وأخص ما عرفوا من انواعه نوع يعرف الآن باسم « الرُّباح البلدي » (papio hamadryas) يستوي منخراه في نهاية خَطْمِيَّة طويلة تشرف على الشفة العليا . وهذه الظاهرة حملتهم على أن يطلقوا على هذه السعادين اسم cynocephalus وتأويله « السعدان الكلبي » لمشابهة افراده لفطر الكلاب . والرباح البلدي هو النوع الذي يستعمله القرادون فيروّضونه ، وكثيراً ما نراه بصحبتهم في شوارع القاهرة يعرضون حركاته على الصبية وأهل الفراغ

ولكل أنواع الربابيح قابلية تجزية كبيرة ، وقد تكون بعض الأحيان زاهية اللون . أما الربابيح الخيّية[1] فذيولها معتدلة الطول . أما الأطراف (اليدان والرجلان) فمتساوية الطول تقريباً ، ولذا هي أنسب لتدرج على الارض منها للتسلق و الحقيقة انهُ ليس من الربابيح نوع واحد ماهر في التسلق ، على ان بعضها يقضي حياته كلها على الارض لا يبرحها . ولبعض الانواع نزعة الى المقام في المواطن الصخرية ، فتعيش هنالك أرجالاً ، حتى متى تجمعها هجمات النمور وغيرها من أكلة اللحوم ، لأن مقامها على الارض يجعلها صيداً سائغاً للمفترس من الحيوان

ولا ينبغي ان يتبادر الينا ان قوة دفاعها تقوم على حيلتها الصوارية[2] وقدرتها المستمدة من اتحادها ، وتماسك افرادها ، لأن ذكر الرباح ، وهو أكبر من الأنثى حجماً وأعظم قوة مما لا يقاس عليه ، قد هيأته الطبيعة بأنياب بلغت من الكبر مبلغاً عظيماً . وان قضمة من أنيابه لتساوي أثر قضمة من أنياب النمر ، وهنالك حالات هاجم فيها بعض الربابيح البالغة نموراً ، فاستقوى الرباح على النمر ، وعجز اللاحم عن منازلة الناشب . يساعد الرُّبّاح على هذا خفة حركته وسرعة انطلاقه في العدو . فإنهُ اذا عدى في أرض مستوية ذلول ، فلا يدركه الا الجواد

(١) الخيّبي الاصيل في جنسه (٢) الصوار القطيع ، وجمعه صيران

تطاق مع الريح سوقه . فاذا أدرك جلس على مؤخرته واتجه نحو عدوه مكشراً عن أنيابه ونواجذه ، وكأنهُ يقول لقرينه : ها هي أنياب الحيَّات السود !

وتأكل الرباييح في مراعيها كل ما يمكن ان ينال تحت أفكاكها القوية . وعلى الرغم من ان طعامها الرئيسي يتكوَّن في أكثره من الحبوب والفواكه والجذور والدرنات والصمغ الذي تفرزه أنواع أشجار الاقاقيا الأفريقية ، فانها تجدُّ باحثة عن الحشرات والعظايا وبيض الطيور تأكلها وتستمرئها استمراءه . وقد تصيب المزارع أضرار بالغة من هجمات الرباييح عليها ، اذا كان ثمت مزارع بمقربة من مراعيها . وقد ذكر كثير من الجوالين انهُ عندما تريد الرباييح غزو مزرعة ، ينتبذ بعض المختارين منها أمكنة تتخذها مراقب للحراسة ، حتى اذا لاح الخطر ترددت أصوات الانذار منبئة باقتراب العدو . فإما الفرار اذا كان الفرار مستطاعاً ؛ واما خوض ملحمة تتطاير فيها الأشلاء . أما تصرُّف الرباييح فبعيد ان يكون فيه شيء من الدعة او اللين . وانها لتملكها سورة من الغضب العنيف اذا ما خيّل اليها في شيء ، سبب يثيرها . ولكن بعض أنواعها قابلة للإيلاف الكامل وقد تقبل الرياضة فتأتي بعض الطرائف . فان قدماء المصريين كانوا يؤلفون أفراد نوع من الرباييح ، ولعلَّ قرّادينا الذين نشاهدهم يعرضون ألعاب الرباح البلدي في أسواق القاهرة هم ورثة أجدادنا القدماء

ولقد عرف أهل أوربا الرباييح منذ أكثر من مائتي سنة بل تزيد . فقد نشر جوَّال أوربي كلاماً عن جولة له في أنحاء أثيوبيا (الحبشة) ونشرت ترجمته الانكليزية سنة ١٦٨٤ . ولقد آثرت أن ألخص ما كتب لطرافته . قال : يوجد هنالك من السعادين آلاف مؤلفة تعيش وتسعى أرسالاً على قمم الجبال وفي سفوحها ، وقد يبلغ كل رَسَل منها الألف عدّاً . وهنالك لا يتركون حجراً الاّ قلبوه ولا نابتاً الاّ كسروه . فاذا صادفهم جلمود لم يقدر اثنان او ثلاثة منهم على قلبه ، تنادوا فاجتمعوا حتى يقووا عليه . كل هذا التماساً لما يكون تحت الحجارة من ديدان ، وهي لون شهي من ألوان طعامهم ، وهم الى النمل أشد قرماً منهم الى الديدان . فاذا عثروا على قرية من قرى النمل ، اجتمعوا عليها وتألبوا تألب المقاتلين من جماعة ، فأمعنوا في القرية نهباً وتدميراً ، ولا يتركونها الاّ بعد أن يأتوا على آخر نملة فيها . وهم كذلك من المغرمين بالفواكه وبالتفاح خاصة . وان حديقة ما ، إن انطلقت اليها رسل منهم فنصيبها الخراب المحقق ان لم يكن عليها عيون أمينة تحرسها . ولكنهم على جانب عظيم من المكر والخداع . ذلك بأنهم اذا أرادوا السطو لم يقدموا عليه حتى يعود اليهم جواسيسهم الذين يرسلونهم دائماً قبل الاقدام على الهجوم . فاذا وجدوا من غفلتهم أصحاب الحديقة غرَّة ، انسابت جموعهم مسرعة عجلانة ليحصلوا على أكثر ما يستطاع في أقل ما يمكن من الزمن . ولكنهم يتقدمون سكوتاً محترسين ، فاذا صاح

صغير منهم لكونه بقبضة يد تمسكه وتخيفه . فاذا خلا لهم الجو أخذ كل منهم يعبر عن فرحه وغبطته بصوت خاص يرسله من حنجرته القوية . أما اذا هوجموا وضيق عليهم الخناق ، التجأوا الى التراب أو الرمل يملأون به أكفهم ثم يلقون به في عيون الفرسان ثم يفرون فرار الريح العاصفة

بالرغم مما يقال عن الرباح من بعد عن الدعة ، وما يوصف به من لصوصية ووحشية : فان فيه صفات تعوض عليه شيئاً مما عرف عنه من سوء السيرة . فان الوداعة لا تفارقه دائماً مع زوال الصولة . ذلك بأن الأمزجة تختلف في أفراد هذا الجنس اختلافها في كثير من أفراد أجناس الحيوان ، وحتى الانسان . ومن هنا وجب علينا أن لا ننتظر من جميع الربابيح ان تكون دمثة الطبع ، ولا ان ننتظر ان تكون جميعاً متوحشة مفترسة . فان رباحاً هاجم أحد حراس حديقة الحيوان بلندن وأمعن فيه خدشاً وتجريحاً ، حتى لقد أشرف على الهلاك . في حين أن رباحاً آخر من النوع المسمى علمياً رباح أنوبيس كان مثالاً للوداعة واللطف ، وعاش ما عاش صادق الود خالص السريرة لحارسه . وجرح مرة فنقل الى حجرة العمليات اثر معركة خاضها ، فلم يكن هنالك من سبب يدعو الى تخديره بالبنج لان حارسه كان معه وكان هو الذي سيتولى مساعدة الطبيب على تطهير الجرح وقص ما تشقق من أطرافه ثم عصبه . ولقد احتفظ جوال عالم يدعى « هر شلنجر » برباح أليف عند ما كان في افريقية ، وكان ذلك الرباح ضخم البدن قوي الأصلاب عظيم القوة . وكان من تعلقه بصاحبه ان يظل يتطلع الى الأفق اذا ما غاب أياماً في احدى الرحلات ولا يطمئن ويظهر عليه الرضى الا اذا لمح شبح « شلنجر » ماثلاً لدى الأفق فيعرفه ويحققه ويعلن بحركات واصوات خاصة مقدم صاحبه ، في الوقت الذي لا يرى الزنوج ذلك الشبح الا نقطة سوداء متحركة غير مستبانة ، ذلك بأن الربابيح فيها من حدة البصر ما يحسدها عليها الزنوج الذين هم مضرب المثل في ذلك عند اهل أوربة

وكان في حرب « البوير » بجنوب افريقية ان عزلت مدينة « لاديسميث » وصمدت للحصار طويلاً . فكانت الربابيح القاطنة في المواطن المحيطة بها أول من ينبه حامية المدينة الى قدوم العدو واقتراب هجومه . غير ان « شلنجر » روى عن رباح ذكي مقدر للظروف كان يعرف ما يحيط به من مخاطر في زمان الحرب ، فكانت حامية « موشي » (Moshi) تربطه على باب القلعة حيث يظل هنالك لاهياً مع صديق له من أطفال الزنوج يلاطفه ويعطف عليه العطف كله . وكان الرباح في موضعه ذلك ذات ليلة ورجال الحامية يتوقعون فيها هجوماً من جانب العدو وعلى حين فجأة اقتحم رجال الحامية الباب مسرعين . فما رآهم الرباح على هذا توقع الخطر واعتقد انه هالك اذا لم يجاوزهم ، فعمل بأقصى جهد حتى تخلص من أغلاله ، وكان من السابقين الى مكان أمين في الحصن

*